محاضرات في مقياس النظريات السوسيولجية الحديثة

إعداد. أ. سعيد سبعون

المحاضـــرة الأولـــى

تعريف النظرية

يقوم العلم في جزء كبير منه على نظرية، فالنظرية هي من المقومات و الدعائم الأساسية التي يستند إليها العلم مهما كان الموضوع (طبيعي أم إنساني) الذي يأخذه بالدراسة، فكل العلوم قامت بتطوير نظريات خاصة بها، تعزز بواسطتها مكانتها في حقل الممارسة العلمية، و هناك عدة محاولات لتعريف النظرية، يمكن أن نشير إلى واحدة أو أكثر منها.

تعريف النظريـــة

يعرفها موريس أنجرس Maurice Angersعلى النحو الأتي : « مجموعة من المفاهيم و التعاريف و الافتراضات لها علاقة ببعضها و التي تقترح رؤية منظمة للظاهرة و ذلك بهدف عرضها و توقع مظاهرها » .

يتضح من هذا التعريف أن النظرية تقوم على مفاهيم و تعاريف و افتراضات، هي كما نرى مستويات نظرية تجريدية بالدرجة الأولى، ثم نجد النظرة أو الرؤية المنظمة للظاهرة، و هذا يعني أن النظرية تمنح نظاما ما للظواهر، أي تمنحها الدقة و الوضوح، فمثلا عندما يتم تبني اتجاه نظري ما. فهذا يعني أننا ضمن طرح واحد واضح المعالم، من دون أن نقوم بالخلط بين عدة مستويات في تناولنا للظاهرة محل الدراسة. فميزة النظرية أساسا هي المستوى الفكري التجريدي الذي يوازي الاتجاه التطبيقي العملي، وهي متعلقة أكثر بالجانب الحدسي التخميني. « بادئ ذي بدء، تفترض مفهوم النظرية وجود نشاط الفكري، نشاط يخص الذهن.. وفي معناها العام، تعني النظرية نشاط تخميني، مجرد.. و يعارض، "الممارسة" ». كما يمكن للنظرية أن تعني كذلك مجموعة من القواعد التي يستند إليها فعل ما ... كما يمكن للنظرية أن تستعمل بمعنى فرضية...كما تعرف بأنها مجموعة منتظمة و منظمة تقوم على فرضيات عامة تهدف إلى جعل موضوع ما " قابلا للفهم" .

و تظهر أهمية النظرية في البحث العلمي، أو في الفروع العلمية من خلال الوظائف التي تقوم بها، و التي تساهم في إرساء القواعد المعرفة العلمية على حساب المعرفة العامية، و هي نقطة فصل أساسية بين ما هو علمي و ما هو غير علمي، بحيث يمكن أن نقوم بدراسات تطبيقية عملية، لكنها لا تكتسب صفة العلمية إلا بحوصلتها في طرح دقيق.

المحاضرة الثانية

وظيفة النظرية في علم الاجتمـــاع

إن الوظيفة الفعلية للنظرية تتمثل في كونها أهم وسيلة للقطيعة الابستمولوجية تجاه الأفكار المسبقة و الحس المشترك عن طريق إقامة هيكل من الصياغات المنتظمة قائمة على لغة (مفاهيم) لديها قواعدها الخاصة بها و التي تعطيها طابعا و اتجاهين خاصين.

إن النظرية بهذا المعنى تغطي كل المسعى الفعلي للبحث، فهي مرتبطة بكل ملاحظة ميدانية، و بكل تجربة. فلا يمكن للبحث السوسيولوجي أن يقوم بمعزل عن النظرية التي تقوم بتوجيه بالمفاهيم اللازمة التي تضعه مداره العلمي

هناك إذا ارتباط وثيق بين النظرية و البحث الميداني في علم الاجتماع لان النظرية تمنح البحث الميداني الإطار المفاهيمي الذي يمكن من تجاوز الأفكار المسبقة و الأحكام القيمية، فالنظرية تلعب دورا أساسيا في بناء موضوع البحث السوسيولوجي، أي عندما يتم تبني طرح نظري ما في علم الاجتماع، فهذا يعني أننا قمنا بنزع موضوع البحث من قبضة الأفكار المسبقة و الأحكام القيمية، و وضعناه في طريق البحث العلمي.

فالاعتراف بأهمية النظرية في علم الاجتماع يعني أننا لا نوافق أن تكون المعرفة العلمية مجرد تراكم بسيط للمعطيات الميدانية، إذ أن هذا التراكم البسيط للمعطيات مهما كانت درجة ملاءمتها، فهذا لا يعني البثة أننا أنتجنا معرفة علمية بأتم معنى الكلمة، بل لابد من مواجهة هذه المعطيات الميدانية بامتداد نظري، يكون بمثابة أرضية أساسية للمعرفة العلمية.

المحاضرة الثالثة

كيف بررت النظرية السوسيولوجية إلى الوجود ؟

عادة ما يتم استعمال عبارة اتجاهات عندما يتم التطرق إلى النظرية السوسيولوجية. و هناك مبرر لهذا التفضيل لعبارة اتجاهات، وهذا حتى لا يدرك علم الاجتماع على انه علم يسعى إلى إقامة نظريات، و هو الفرع المعرفي الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالاهتمام بالواقع الاجتماعي المباشر العملي. فأولئك الذين يفضلون استعمال عبارة اتجاه أكثر من نظرية يبررون ذلك بان الوجهة الرئيسية لعلم الاجتماع لا تتمثل في إقامة نظريات، و حتى استعمال النظرية عندهم، لا يكون إلا بدافع استعمال مفاهيم من شانها أن تساعد في جمع مظاهر الواقع الاجتماعي التي تمتلك خصوصيات و مميزات مشتركة في صفة واحدة.

لكن هذا لا يمكن أن يتجاوز واقع تاريخي هام لدى علم الاجتماع ميزه منذ نشأته، ألا و هو تواجد الجانب النظري في علم الاجتماع منذ نشأته، بل نستطيع أن نقول أن علم الاجتماع في نشأته كان بإيعاز نظري محض.

فهاهو أوغست كونت (1798-1857) مبتكر تسمية علم الاجتماع، يتوصل إلى اكتشاف هذا العلم انطلاقا من اعتبارات فلسفية بالأساس، ففي تحديده لأشكال التفكير التي مرت بها الإنسانية التي صاغها في ثلاثة مراحل و هي المرحلة اللاهوتية و المرحلة الميتافيزيقية و المرحلة الوضعية. التي رأت ميلاد علم الاجتماع. و هو كما نرى تحديدا لا ينطلق من بحث ميداني امبريقي، بقدر ما يتركز على طرح فلسفي نظري بحت، يدعمه طرح سياسي أخلاقي : « إن الوعي المعرفي بضرورة وجود علم يختص بدراسة الظواهر المجتمعية، على غرار ما هو موجود في العلوم الطبيعية، يتم الإجماع على انه برز مع أوغست كونت...يمكن تفسير تأخر بروز هذا الوعي المعرفي حسب أوغست كونت، بأسباب ستكون بمثابة شروط ابستمولوجية مؤسسة لهذا العلم الناشئ – الفيزياء الاجتماعية – في البداية ليستقر على تسمية سوسيولوجيا لعلم الاجتماع». و لهذا « فإن العلم الذي يدرس ظواهر المجتمع لا يمكن أن يقوم قبل قيام العلوم الأخرى».

و هذا لكون أن هناك « تعقد الظواهر المجتمعية من جهة، و توقف معرفة قوانينها على معرفة القوانين التي تخص الظواهر الفيزيائية و الكيميائية و البيولوجية من جهة أخرى».

و كما نرى فان الاعتبارات النظرية أساسا هي التي أطرت نشأة علم الاجتماع.هناك إذا نوع من الاتفاق بين المشتغلين حول تاريخ علم الاجتماع على أن هذا العلم وثيق الصلة بالمستويات الفكرية النظرية التي جسدها أساسا كونت عندما جعل من العلم الناشئ و هو علم الاجتماع علم برز بحكم وصول الفكر البشري مرحلة التفكير الوضعي الذي يقوم بقطيعة مع الفكرين اللاهوتي و الميتافيزيقي. و هذا العلم الناشئ هو في علاقة مع الأوضاع التي كانت تعرفها أوروبا على العموم و فرنسا على وجه الخصوص، ألا و هما الثورة الصناعية في بريطانيا و الثورة الفرنسية. ويأتي علم الاجتماع و يجد مبرر نشأته كإطار تفسيري لهذه التغيرات التي أفرزتهما هاتين الثورتين.

لذلك فعلم الاجتماع في مرحلة ما من تاريخ المجتمعات الأوروبية و هذا ما يؤدي إلى القول أن علم الاجتماع لحظة بروزه كان عبارة عن خطاب نظري أو يحاول أن ينظر لجملة التغيرات التي مست مختلف بنيات المجتمع الأوروبي القديم. وتبقى مساهمة كونت في هذا المجال أهم محاولة و أهم مؤشر على نشأة النظرية السوسيولوجية و انطلاقاتها. فالنظرية السوسيولوجية وجدت منذ وجود علم الاجتماع و بروزه كنظام معرفي يختص بدراسة المجتمع.

المحاضرة الرابعة

ظهور علم الاجتماع كعلم قائم بذاته

لسنا نبالغ إذا قلنا أن علم الاجتماع هو العلم الوحيد الذي تتم مساءلته باستمرار حول علميته أو طابعه العلمي، و تحوم حوله الشكوك العلمية فيما يخص هويته و ملمحه العلميين! و لطالما واجه المشتغلون به و في مجاله أسئلة على النحو الأتي : « هل علم الاجتماع علم؟. »

إن مثل هذه التساؤلات، تشير علينا إلى أن علم الاجتماع أكثر من غيره من العلوم الاجتماعية و الإنسانية الأخرى، واجه صعوبات عديدة لحظة بروزه، و كان عليه أن يواجه المعترضين على إقامته كعلم كغيره من العلوم بمزيد من الحجج و البراهين على طابعه العلمي الخالص. لأن العلوم الإنسانية و الاجتماعية التي وجدت قبله، كانت تهتم بمواضيع جعلتها كمبررات لهويتها العلمية و المعرفية، و لم تر في الموضوع الذي حدده علم الاجتماع له كفرع معرفي على انه موضوع يميزه و يجعل منه محل اهتمام معرفي.

فإذا كان الاقتصاد يدرس الظواهر الاقتصادية و القانون يدرس الظواهر القانونية، و علم السياسة يدرس الظواهر السياسية، الخ ، فماذا يبقى من مجال اهتمام لعلم الاجتماع ؟

لكن مثل هذه التصورات لم تثبط عزائم الرعيل الأول من علماء الاجتماع الذين سعوا إلى إيجاد الطابع الخصوصي لعلم الاجتماع، فيما يجعله مختلف عن العلوم الاجتماعية الأخرى.

مرة أخرى نعود إلى أوغست كونت الذي تكون لديه الوعي بضرورة إنشاء علم جديد يهتم بشؤون المجتمع الفرنسي على الخصوص و سعى إلى إيجاد حلول "علمية" لحالة الفوضى السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية التي تميز المجتمع الفرنسي في عصره. « إن كل عمل كونت و مساهمته يتمثلان في البحث عن النظام الذي يريد أن يقدمه لأشكال التغير الذي تميز المجتمع الذي يعيش فيه، و هذا التصور نجده تماما في قانون الحالات الثلاث... إن قانون الحالات الثلاث ينزع إلى إثبات أن كيفية التفكير الوضعي التي فرضت نفسها في الرياضيات ثم انتقلت (طريقة) تدريجيا إلى علم الفلك والى الفيزياء ثم إلى الكيمياء و إلى

البيولوجيا، سيتم تطبيقها حتما في دراسة المجتمع، و في العلم الملائم لهذا المجتمع و الذي سيأتي، و يتعلق الأمر بعلم الاجتماع » .

فالمكسب الأول الذي سمح لعلم الاجتماع بان يرى النور و يبرز كفرع معرفي كغيره من العلوم الأخرى، هو اكتسابه لصفة الوضعية و التي منحها إياه أوغست كونت الذي اكسبها إياه بمحاكمته بنموذج العلوم الطبيعية التي تعتبر علوم بأتم معنى الكلمة.

و كان للسياق التاريخي الذي عايشه كونت أثرا هاما في توصل كونت إلى إنشاء علم الاجتماع أو على الأقل منحه هذه التسمية: « فهناك لا شك تغير ثوري في المجتمع، و لكنه يتميز في عهد كونت بنوع من الأزمة الثورية. لقد سادت الفوضى العقلية الأذهان، و هي في نظر كونت مصدر للفوضى الأخلاقية أولا ثم للفوضى السياسية بعد ذلك...فرفع الفوضى السياسية و إعادة النظام إلى المجتمع، يقتضي إزالة الفوضى الأخلاقية و هو الأمر الذي يتطلب النظر في الفوضى العقلية بإقامة المعرفة العلمية بالحياة العملية للمجتمع ».

فكان لحالة الفوضى التي رافقت التغيرات الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية من خلال الثورة الصناعية و الثورة الفرنسية الأثر البارز في توجيه فكر أوغست كونت و محاولته في إقامة نظام معرفي بأمور المجتمع، و هذا ما مثل الخيط الهادي لبروز علم جديد بالمجتمع و هو علم الاجتماع أو السوسيولوجيا :

« إن كونت ينطلق من حالة الأزمة...و التي طبعت المجتمع الفرنسي، بعد ثورة 1789، هذه الأزمة التي لا يمكن التأثير فيها و احتوائها حسبه إلا عن طريق معرفة آليات سيرها و المنطق الذي يدير حركتها و حركتيها، هذه المهمة توكل حسبه إلى علم الجديد ألا و هو السوسيولوجيا » .

فالأوضاع المتأزمة التي عايشها اوغست كونت بعد الثورة الفرنسية كانت بمثابة الدافع الرئيسي الذي سمح بالتفكير في إنشاء نظام معرفي من شانه أن يساهم في إيجاد الحلول الفعلية لحالة الأزمة تلك.

و من جهة أخرى، فان كونت يرى في تبريره المعرفي لإنشاء علم الاجتماع، إن الظرف الحالي – الفترة التي كان يعيش فيها – أصبح ملائما من ناحية التطور الفكري، بحيث أن البنية الفكرية تؤهل للاهتمام بالأمور الاجتماعية، اهتماما بعيدا عن الاعتبارات اللاهوتية و ميتافيزيقية التي تسعى إلى إيجاد تفسيرات في اطر غيبية أو ما فوق طبيعة، أي خارج اطر الظاهرة ذاتها، و هذا ما من شأنه أن لا يؤدي إلى التفسير الصحيح و المقبول للظواهر محل اهتمام لكن كونت ، و إن كان إسهامه إسهاما بارزا و قويا في ظهور علم الاجتماع، سيما إعطائه التسمية التي لا يزال عليها إلى اليوم، فان التأسيس الفعلي لعلم الاجتماع سيأتي بعد أوغست كونت، و سيما مع إميل دوركايم (1858-1917) و ماكس فيبر (1864-1920)، و فرديناند تونيسFerdinand Tonnies (1855-1936)، جورج زيمل George Simmel (1858-1918) و فيلفريدو باريتوVilfredo Pareto (1848-1923).

على سبيل المثال، حاول دوركايم تجاوز الطرح الذي أتى به كونت و سعى إلى مؤسسة (Institutionnalisation) علم الاجتماع و ذلك من خلال إدخاله إلى النظام التعليمي الجامعي ، بحيث أصبح بإمكان تدريس علم الاجتماع بالجامعة الفرنسية منذ 1887- بوردو على يد إميل دوركايم، و كذلك تحديد معالم هذا العلم من خلال منحه الإطار النظري الواضح مع نظرية الاجتماعي التي طورها دوركايم في مؤلفه « في تقسيم العمل الاجتماعي» و أساسا إعطائه منهج دراسة أراده دوركايم ملائما و مناسبا للظواهر الاجتماعية «قواعد المنهج السوسيولوجي» و كذلك مجلة هي الحولية السوسيولوجية السنوية l'Année sociologique التي لا تزال تصدر إلى اليوم (صدر أول عدد منها عام 1898).

أما الأول فيتعلق بمبدأ الحتمية الذي يرى فيه إن كان له التأثير في بروز علم الاجتماع بطابعه التعليمي حيث يشير إلى انه ما كان لعلم الاجتماع أن يرى النور (يظهر) قبل اكتساب الشعور أن المجتمعات ، مثل باقي العالم، خاضعة للقوانين، التي هي مستخلصة بالضرورة من طبيعتها و التي تعبر عنها .و لقد استغرق هذا التصور و قتا طويلا لكي

يتكون ... و انه كان يجب انتظار نهاية القرن الثامن لنلمح أن النظام الاجتماعي لديه قوانينه الخاصة به، على غرار الأنظمة الأخرى للطبيعة ».

هذا هو الأساس المعرفي، النظام الذي مكن علم الاجتماع أن يأخذ صفه العلمية على غرار العلوم الطبيعية التي كانت قد تشكلت و تكونت على مبدأ الحتمية الذي ينص على أن الظواهر منها كانت طبيعتها نضع في سيرها القوانين لا يتحكم الفرد أو المجتمع في سيرها أي أن الأفراد أو المجتمعات لا يتدخلون في توجيه الظواهر الاجتماعية كيفما أرادو و ليس لأمانيهم و رغباتهم أي دخل في تطور المجتمع و سيره !

أما المبدأ الثاني فهو حسب دوركايم، اجتماعي بالأساس هو مرتبط بالمسألة الاجتماعية التي كانت مطروحة في عهد دوركايم، بحيث كان أشغال دوركايم يصب في السعي لإيجاد حلول للمشاكل الاجتماعية التي كانت سائدة في عهده و التي أفرزتها جملة التغيرات السياسية و الاقتصادية التي كانت موضوعا لها فرنسا.

لقد كان دوركايم يعتبر أن علم الاجتماع لا يستحق أن يخصص له خمس دقائق من المعاناة إن كان مجرد علما تجريديا تخمينيا. فالبعد العلمي كان حاضرا كانشغال قوي عند دوركايم و سعى إلى ذلك من وجهة نظر سوسيولوجي، عن طريق مفهوم أساسي في بنائه سوسيولوجي، انه مفهوم الاندماج الاجتماعي الذي يعول فيه على إيجاد حل للمسالة الاجتماعية هذا الاندماج الاجتماعي الذي يرافع من أجله دوركايم في تحليله السوسيولوجي للواقع الاجتماعي كان مرتبطا بجملة من المسائل التي برزت إلى الواجهة مع التحولات الاجتماعية التي ميزت أوروبا الثورتين الصناعية و السياسية.

فعلى سبيل المثال « فإن علم الاجتماع الناشئ لم يقتصر على مجرد التفكير القائم على المفاهيم التي ليس لها علاقة بالوقائع الاجتماعية. فبفضل " فرصة" المشاكل تم التعرف على علم الاجتماع...يشير **نسبت Robert Nisbet** إلى هذه المشاكل التي واجهها علم الاجتماع الناشئ. حيث يشخصها حول بعض المواضيع مثل ظروف معيشة العمال، تنظيم العمل في المصنع، بروز مدن صناعية، لكن أيضا ظهور المشاكل التي اعتبرت اجتماعية

مثل البؤس، تعاطي الخمور، الصحة العقلية. و من دون شك فانه منذ ثورة 1848، تم الجمع بين علم الاجتماع و المسالة الاجتماعية.

و إذا كان، بالعودة إلى **نسبت،** علم الاجتماع بمثابة رد فعل لمسألة أخلاقية مرتبطة بالأفعال واقعية، نتصور إذن أن المسألة الاجتماعية هي من المسألة السوسيولوجية... ».

هناك إذا تداخل بين المسألة الاجتماعية و بروز علم الاجتماع كمحاولة منه للمساهمة في إيجاد حلول لجملة المشاكل التي عرفتها أوروبا مع جملة التغيرات التي حدثت سواء على المستوى الاقتصادي أو السياسي.

ظهور علم الاجتماع كعلم قائم بذاته: البداية الفعلية

لقد ساهمت العوامل الفكرية و الاجتماعية التي اشرنا إليها أعلاه في ظهور علم الاجتماع كعلم قائم بذاته و مستقل عن العلوم الاجتماعية الأخرى. و هذه الاستقلالية هي التي تجعل من هذا العلم علم قائم بذاته و بعبارة قائم بذاته فإننا نعني بها علم له موضوع خاص به يكون بمثابة الهوية المعرفية والابستمولوجية التي يتحدد بها اتجاه غيره من العلوم الاجتماعية الأخرى، و كذلك منهج علمي واضح المعالم.

فهاهو دوركايم منذ بروز وعيه بضرورة توجيه علم الاجتماع علما قائم بذاته : « لقد كان الانشغال الأول دوركايم يتمثل في تأسيس علم الاجتماع كعلم قائم بذاته ، و حتى يصبح علم الاجتماع علما قائما بذاته، يجب أن يلبي شرطين : أن يكون له موضوع خاص به و هو الظواهر الاجتماعية، و يصيغ منهجا موضوعيا للبحث » فالطابع العلمي لأي فرع يكون بحصوله على خصوصيته لعلم قائم بذاته عن كسبه لموضوع دراسته الذي يميزه عن غيره من العلوم الأخرى، ثم يأتي المنهج الذي يسمح له بالدراسة الموضوعية للظواهر التي تندرج ضمن نظام اهتمامه « لقد كانت هناك إرادة معلنة لإقامة "العلم" الاجتماعي و إعطائه هوية فرع قائم بذاته بجعله مستقلا عن الفروع الأخرى، سيما علم النفس، و الاقتصاد، و جعل منه أداة من اجل إدماج أفضل للفرد في المجتمع، و التحمس من اجل

تقديم علم الاجتماع كنظرية شمولية و اقتراح طريقة تناول منتظم للظواهر الاجتماعية، مما يسمح لعرض بكيفية موضوعية لهذا العلم » .

من هذا الاقتباس يمكننا أن نقول إن السعي من طرف دوركايم لجعل العلم الجديد و هو علم الاجتماع، علم قائم بذاته يمر عبر منحه استقلالية معرفية و مؤسساتية و تبيان مدى صلاحيته و جدواه الاجتماعية من خلال مساهمته في منح أكثر اندماج للأفراد و جعل من المجتمع واقعا منسجما بفضل هذا الاندماج الاجتماعي للأفراد، و البحث عن إقامة له نظريات تسعى إلى جعله يتفادى التشتت و التبعثر للجهد من طرف الفاعلين ضمنه، فالنظرية لها وظيفة التجميع و التوحيد الذي يسمح بالتعميم من خلال إقامة الانتظام الاجتماعي (régularité sociale) أو التواتر الاجتماعي . فعلى سبيل المثال نجد الطرح النظري عند دوركايم بخصوص علاقة الانتحار بدرجة الاندماج الاجتماعي، و هذا ما يجعلنا نصل إلى نظرية دوركايم بخصوص الانتحار عندما نضع الطرح الأتي : للاندماج الاجتماعي أثر في ظاهرة الانتحار. و هذا التعميم أيضا مرتبط بعنصر أخر تتهيكل حوله النظرية انه المفهوم السوسيولوجي. مما يجعلنا نقول إن النظرية تقدم على مفاهيم التي تعتبر بمثابة الخطاب الذي يتم بواسطته العلم. أما الطريقة، فتعني هنا المنهج الذي يتم بواسطته مقاربة الظاهرة محل الدراسة وتناولها، وعادة ما يترجم هذا المنهج في علم الاجتماع إلى إجراءات عملية ملموسة تسمى بتقنيات البحث.

لكن قبل كل هذا، فان الطابع المستقل للعلم خاصة علم الاجتماع لكي يصبح علما يتميع بكامل حقوقه الابستمولوجية و التي تجعله قادرا على التموقع في النظام المعرفي و يلقى قبول المجموعة العلمية و موافقتها عليه تكون بإحرازه على موضوع دراسة خاصة به دون غيره، و يتعلق الأمر بموضوع علم الاجتماع .

تعريف موضوع علم الاجتماع

- موضوع علم الاجتماع : شرط رئيسي في أن يصبح علم الاجتماع علما قائما بذاته.
- قد لا نبالغ إذا قلنا أن علم الاجتماع هو العلم الوحيد الذي يجد صعوبة في تحديد موضوع واحد يميزه عن غيره مما يخلق عادة نوع من الحيرة و الشك و التذبذب لدى

الدارسين لهذا العلم سيما المبتدئين منهم إذ توجد عدة تعاريف لموضوع علم الاجتماع بل يوجد من التعاريف بقدر ما يوجد من المستغلين بهذا العلم. (Il y a autant de définitions que de sociologues)

مما يجعل علم الاجتماع علم يتميز ببحثه الدائم عن نفسه. و هو ربما العلم الوحيد من العلوم الاجتماعية

– مثلما اشرنا إلى ذلك أعلاه – الذي يطرح تساؤلات حول ما إن كان علما أم لا ، و في كثير من الحالات، هناك من يذهب إلى جعل من علم الاجتماع مجرد محاولات أدبية يطغى عليها الواقعية (essayisme littéraire) أو عبارة عن كتابات صحفية أو بأسلوب صحفي. و هو الوضع الذي يزداد تعقيدا عندما تنصب نفسه أي كان خبيرا في المسائل الاجتماعية، يمنح لنفسه نوع من الوهم حول إمكانية تعاطيه للتحليل الاجتماعي للواقع مطابقا بذلك و مخلطا بين هذا شبه التحليل الاجتماعي و التحليل السوسيولوجي للواقع الاجتماعي، و هذا راجع حسب رأينا إلى ذلك التعدد في تحديد موضوعه، الذي قد يعتبر نوع من المنافسة المعرفية لدى الكثير من المشتغلين بهذا العلم.

لكن، يمكن لهذا التعدد و هذه الوفرة في تعريف موضوع علم الاجتماع أن يكون على حيوية علم الاجتماع و طابعه المنتعش و تعدد مداخله الابستمولوجية، و أن ذلك لا يؤثر البثة في حركيته الدائمة. و أن الأزمة التي غالبا ما يتم الإشارة إليها فيما يخصه لم تؤدي إلى اندثاره و اختفائه، بل يتموقع في كل مرة في الحقل العلمي، و يبقي على أهميته كعلم يسعى إلى تفسير مختلف الظواهر الاجتماعية !

المحـــاضرة الخامسة

النظرية الوضعية في علم الاجتماع

تظهر أهمية النظرية الوضعية في علم الاجتماع في كون هذا الأخير لحظة نشوئه استند إلى هذه النظرية حيث كانت علاقة وطيدة بين علم الاجتماع الناشئ و النظرية الوضعية. فما هي إذا مقومات هذه النظرية وكيف وظفها علم الاجتماع الناشئ ليأخذ مكانه في النظام المعرفي السائد آنذاك. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فان النظريات السوسيولوجية الحديثة

جاءت كمحاولة لإعادة النظر في هذه النظرية الوضعية في علم الاجتماع، لذلك يتعين علينا أن نشير إليها باختصار.

- بادئ ذي بدء، نشير إلى أن أوغست كونت يعد من ادخل النظرية الوضعية إلى نظامه المعرفي الجديد المتمثل في علم الاجتماع، حيث أدرجها كونت في قانون الأحوال الثلاثة : و هي اللاهوتية و ميتافيزيقية و الوضعية. وهي آخر حالة أو المرحلة يعرفها الفكرالانساني، و هي مرحلة تكريس الفكر العلمي الذي يبتعد عن التفسيرات اللاهوتية و الميتافيزيقية.

و في هذا الشأن يكون كونت قد استفاد من الوضع الفكري الذي تواجد فيه في مرحلة تاريخية كانت تتميز بغليان فكري و إيديولوجي و حراك متنام و متصاعد « استفاد أوغست كونت من تكوين متعدد التقنيات و تعليم علمي كلاسيكي، كما كانت له معارف في الطب و فيزيولوجيا، و شارك في كتب في أعمال سان سيمون فتأثر كثيرا باصطلاحيته الصناعية و استطاع إحداث قطيعة بين مرحلة ميتافيزيقية (القرن 18) و المرحلة الوضعية و العلمية (القرن 19) ». و قام بعرض النظرية الوضعية في مؤلفه دروس في الفلسفة الوضعية التي هي عبارة عن دروس عامة، سعى من خلالها إلى مرافعة من اجل فكر وضعي بنقله إلى الظواهر المجتمعية. محاكيا بذلك النظام الفكري الخاص بالظواهر الطبيعية: « استهل الكاتبcours de philosophie positive على شكل دروس عامة ألقاها ابتداء من 1826 و الصادرة بين (1830 و 1842) معلنا من الوهلة الأولى من " قانون أساسي كبير" و هو قانون الحالات الثلاثة الذي يخضع للفكر البشري لضرورة ثابتة لمسيرته التقدمية. "مفاد هذا القانون أن كل تصور من تصوراتنا الأساسية، و كل فرع من معارفنا يمر بصفة متتالية عبر ثلاث حالات نظرية مختلفة و هي الحالة اللاهوتية أو الغيبية، أو الحالة الميتافيزيقية أو المجردة، و الحالة العلمية أو الوضعية...ففي الحالة الأولى، يعتبر التفكير البشري الظواهر من فعل كائنات فوق الطبيعة غدت قوى مجردة (أسباب) في الحالة الثانية، التي تشكل انتقالا للحالة الثالثة حيث " عن طريق استعمال مركب بصفة جيدة للتفكير و الملاحظة يكشف عن قوانينها الحقيقية بمعنى علاقاتها في التعاقب و المتشبهات غير المتغيرة...فيحل البحث عن القوانين محل البحث عن الأسباب ».

نلاحظ إذن أن وضعية كونت تقوم على بحث عن القوانين التي تخضع لها الظواهر في سيرها، من دون التوقف عند أسباب حدوثها. و هذا ما جعل إميل دوركايم ينتقد كونت في جوانب من النظرية الوضعية، حيث يعطي دوركايم الأولوية في تفسير الظواهر إلى الأسباب التي تؤدي إلى حدوثها أكثر من القوانين.

و يمكن نحدد الوضعية بأنها موقف يتخذ من ملاحظة الظواهر أهم ميزة للعلم. هذه الملاحظة التي يمكن أن تدعمها التجربة، أي أن الوضعية هي الإقرار بإمكانية قيام العلم عن طريق ملاحظة الظواهر محل الدراسة. فها هو دوركايم احد ابرز ممثلي الاتجاه الوضعي، و إن كان ينتقد كونت، رائد الوضعية في علم الاجتماع، في كثير من وجهات نظره، إلا انه يعطي الأولوية في محاولة إقامة علم الاجتماع على مبادئ علمية إلى ضرورة أن تكون الظواهر التي يدرسها علم الاجتماع قائمة على الملاحظة. أي أنها قابلة للملاحظة لكونها معطاة حيث عرف الظاهرة بأنها « كل معطى يكون قابلا للملاحظة ». فالوضعية هي وضعية الوقائع العلمية التي تكون ابعد من جوهر الأشياء في هذا الإطار، فان « كونت يفعل بصفة عمدية بين الدراسة الفيزيقية للظواهر عن الميتافيزيقيا. انه يؤكد الصحة العلمية للمعارف ابتدأت تستند إلى ملاحظة يتم القيام بها بصفة منتظمة، و عموما إلى التجربة التي تعني اللجوء إلى التجريب. و هذا التجريب هو ما يميز العلوم، الطبيعية و التجريبية، حيث يقوم بجمعها في بنية منسقة من المعارف، إذ أن كل ظواهر الطبيعية هي حسبه خاضعة لقوانين لا متغيرة ».

هكذا فان الوضعية تجعل من الحواس – الملاحظة – المقر الأول للمعرفة العلمية. و هذا نابع من تصور كونت إلى طبيعة الفكر الإنساني الذي يعتبره غير قادرا على الحصول إلى مصطلحات مطلقة، فالأولى له أن يهتم بها يقع تحت ملاحظته، و هذا ما من شانه أن يسمح له التعرف على قوانين سير الظواهر التي يعتبرها كونت وسيلة هامة لمعرفة كيف تتطور المجتمعات و تتقدم: « في حالة الوضعية، فان الفكر الإنساني يعترف بعدم استطاعته على الحصول على مصطلحات مطلقة، و انه يتخلى على البحث عن أصل الكون و مصيره، و على البحث عن الأسباب الكامنة لحدوث الظواهر، ليهتم فقط

بالاكتشاف، عن طريق استعمال الاستدلال والملاحظة معا، لقوانينها الفعلية، أي علاقتها اللامتغيرة في التعاقب و في التشابه ».

وسعى كونت إلى إدخال هذا التصور للوضعية إلى علم الاجتماع، حيث يرى أن هذا العلم لا يمكن له أن يكون إلا علما وضعيا. على غرار العلوم الطبيعية التي سبقته إلى الوجود. لأنها علوم أكثر بساطة و أقل تعقيدا في ظواهرها من الظواهر المجتمعية. وهو علم تتوافر فيه مقومات الوضعية. سيما الملاحظة، بحيث يمكن لنا أن نلاحظ الظواهر المجتمعية أو الاجتماعية و هذا ما سعى إليه دوركايم الذي عمل على بلورة أفكار كونت في إطار قواعد منهجية واضحة المعالم عندما اقر بأنه يتعين على الدارس لعلم الاجتماع أن يتعاطى و يتعامل مع الظواهر الاجتماعية باعتبارها مادة دراسة علم الاجتماع على أنها أشياء مثل الظواهر الطبيعية، و الشيء مثلما اشرنا إلى ذلك سابقا هو كل معطى قابل للملاحظة.

« بالفعل، و إلى غاية اليوم. لم يهتم علم الاجتماع حصريا بالأشياء، لكنه اهتم بالمفاهيم. صحيح أن كونت أعلن أن الظواهر الاجتماعية هي ظواهر طبيعية خاضعة لقوانين طبيعية. لقد اعترف بان لهذه الظواهر صفة أشياء، لأنه لا يوجد في الطبيعة إلا الأشياء. لكنه عندما حاول أن يتجاوز هذه العموميات الفلسفية و يطبق مبدأه ذلك ليستخرج منه العلم الموجود به، فانه يأخذ كموضوع لدراسته الأفكار دون غيرها. بالفعل، فان المادة الأساسية لعلم الاجتماع عند كونت هي تقدم الإنسانية عبر الزمن. إذ ينطلق من فكرة أن ثمة تطور مستمر للنوع البشري يتمثل في تحقيق مكتمل للطبيعة البشرية. و أن المشكلة التي يعالجها تكمن في معرفة النظام هذا التطور. إلا انه لو افترضنا أن هذا التطور موجود، ليس بإمكاننا إثبات ذلك إلا إذا قام العلم، و عليه لا يمكننا أن نضعه كموضوع بحث إذا اعتبرنا. مجرد تصور ذهني و ليس كشيء ».

و باختصار نقول من خلال هذا النص لدوركايم لنقده لوضعية كونت أن الوضعية هي موقف علمي يتخذ من ملاحظة الظواهر الاجتماعية في حالة علم الاجتماع، المقوم الأساسي لها. هذه الملاحظة التي يجب أن تعتبر الظاهرة محل الدراسة على أنها شيء و ليس

مجرد أفكار و تمثلات ذهنية و تبحث عن القوانين التي يقوم عليها سير هذه الظواهر، لكن حسب دوركايم فان التوقف عند القوانين لا يؤدي بالضرورة إلى التعرف عن ما الذي جعل هذه الظواهر تكون موجودة، و لا يتم ذلك إلا بالوقوف على الأسباب التي تؤدي إلى حدوثها.

هذه بصفة مختصرة بعض الأفكار حول نظرية الوضعية في علم الاجتماع.

المحاضرة السادسة

النظريات السوسيولوجية المعاصرة

بعدما تطرقنا فيما سيق إلى بعض جوانب النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية، سيما مع الوضعية التي كانت بمثابة المنطق النظري لعلم الاجتماع الناشئ الذي استند إليها اخذ منها مقومات وجوده هذه الوضعية التي حاولت أن تضع علم الاجتماع في مدار علمي يتأسس بمحاكاة النموذج الفيزيائي الذي كان قد عرف تتويجا و أسبقية تاريخيين و ابستيمولوجيين، بدا علم الاجتماع الناشئ يحاول أن يتموقع و يبحث عن مكانة له في النظام الجامعي و يحاول و يسعى أن يكسب بفضل جهد الفاعلين في مجاله ، إطارا مؤسساتيا معترف به. مع الإشارة إلى فضاء نشاط علم الاجتماع إلى غاية 1920 كان بأوروبا، سيما في فرنسا و ألمانيا و بدرجة اقل انجلترا. ففي فرنسا كانت الحركية مع إميل دوركايم في نهاية الثمانينات القرن التاسع عشر، و تسعينات القرن التاسع عشر مع إصداره للمؤلفات التي ستصبح المرجعيات الأساسية في علم الاجتماع على غرار في تقسيم العمل الاجتماعي الذي صدر عام 1893 و قواعد المنهج السوسيولوجي الذي صدر عام 1895 تم الانتحار في عام 1897 و كذلك إنشاء حولية علم الاجتماع السنوية 1896. مع مجموعة من الأسماء البارزة التي احتفظ تاريخ علم الاجتماع. و كان نشاط سوسيولوجي أخر في ألمانيا سيما مع ماكس فيبر(1864- 1920) أساسا الذي ساهم بإنتاج كبير في علم الاجتماع وان كان فيبر، على عكس دوركايم. لم يكن يوسم أعماله بالسوسيولوجية و أن مسالة الحدود بين علم الاجتماع و الاقتصاد لديه لم تكن واضحة تماما.و الأهم في هذا أن المرجعية العلمية لعلم الاجتماع أصبحت مطلبا قويا منذ 1880: « إلى العقد الأخير من القرن التاسع بقيت

المعرفة الخاصة بالاجتماعي من اهتمام من نطلق عليهم اليوم تسمية " الهواة " : **فيلرمي Villerme**كان طبيبا، **طوكفيلTocqueville** كان قاضيا، **انقلزEngels** و **بوث Both**رؤساء مؤسسات، **لوبلي** Le Playو **سبنسر** Spencer مهندسين، **كونت** مختص في الرياضيات. فالأوساط المنظمة التي كانت تتحمل هؤلاء أحيانا لم تكن تتأسس على قاعدة علمية، و لكن على قاعدة إيديولوجية و نضالية. و على العكس من ذلك، فإن المرجعية العلمية تصبح هي الصفة المهيمنة بعد 1880. ففي عدد من البلدان الكبرى برزت مجالات علمية، التي ستصبح المكان الذي يشيد فيه العلم الناشئ في تبادل، و المواجهة، و صياغة المعايير... إن هذا التموقع الأول و الحاسم لعلم الاجتماع سيفتتح في نفس الوقت واحدة من خصوصياتها المعرفية الأكثر أهمية: لم يظهر هناك فرع أحادي، على الرغم من أحادية تسميته، لكنه أسلوب من المعارف المتعددة، و الذي منذ نشأته، سيندرج ضمن " مدرستين " مختلفتين: المدرسة الفرنسية و المدرسة الألمانية لعلم الاجتماع ».

إن الشيء المميز لواقع علم الاجتماع في أوروبا من العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر إلى العقدين الأولين من القرن العشرين هو الانتعاش و الحركية اللذين ميزا الإنتاج العلمي في علم الاجتماع. فمثلما اشرنا إلى ذلك أعلاه. و يمكن القول إن علم الاجتماع إلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى بقي " يسبح" ضمن الإطار النظري الوضعي، لكن مع بروز اختلافات في التناول و المقاربات، فإذا كانت المدرسة الفرنسية تعطي أولوية للاتجاه الموضوعاتي (objectivisme) الذي يقوم على فكرة أن هناك علاقة خارجية بين الباحث و موضوع بحثه، أي اعتبار الظواهر الاجتماعية موضوع الدراسة على أنها ظواهر خارجية مثل الأشياء التي تتبع تحت الملاحظة. كما أن هذه المدرسة تقوم على مصطلح الشمولية (holisme) الذي يجعل من المجتمع هو الذي يحدد ممارسات الأفراد و هروب سلوكهم، فان المدرسة الألمانية الخاصة مع فيبر، فان تعطي الأولوية للاتجاه الذاتياتي (subjectiviste) الذي يعتبر التمثلات الفردية و الاعتبارات القيمية من صميم الظاهرة الاجتماعية محل الدراسة و على البحث السوسيولوجي أن لا يسعى إلى إقامة قطيعة معها و انه من غير الممكن اعتبارها كأشياء مادية، لأنه مهما كان الأمر فهي ظواهر

حاملة لمعان و أشكال تصورات يتعين على الباحث أن يقوم لها وزنا. من جهة أخرى، فإن فيبر يرى في الإرادات الفردية مستوى هام يمكن أن يؤسس المجتمع و يوجهه و يحدد مساره. و يترتب عن هذه الاختلافات في التناول، اختلافات في كيفية مقاربات المواضيع الاجتماعية. فنجد دوركايم يتوجه نحو منهج التفسير، في حين نجد فيبر يعتمد على الفهم.

لكن سنحصر إلى نوع من الفتور الذي يسعى له علم الاجتماعي " الأوروبي " بعد الوفاة من اعتبروا ركائز لعلم الاجتماع الكلاسيكي، في نفس الوقت تقريبا: دوركايم 1917، **فيبر** 1920، **باريتو** 1923، **تونيز، زيمل**. لتنتهي برحيل هؤلاء مرحلة نشاط هامة.

لكن علم الاجتماع كعلم قائم بذاته لم ينته مع رحيل هذا الجيل الأول من علماء الاجتماع، في أوروبا، سيعرف يمكننا القول ميلاد ثان في فضاء جغرافي آخر، ألا و هو الولايات المتحدة الأمريكية، التي كانت فيها الظروف التاريخية المهيأة لاحتضان علم الاجتماع، وهي الظروف التي ساعدت على هذا التوطين الجغرافي لعلم الاجتماع: « لقد أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية تعيش مرحلة صناعية مزدهرة، أصبح فيها نمط حياة الحضري هو المهيمن، لكن هذا الازدهار العام لا يخفي جيدا انتشار مظاهر التهميش في قلب المدن التي عرفت توسعا ديموغرافيا هائلا بسبب موجات الهجرة، حيث ازدادت ظواهر الانحراف و الجنوح التي لم يسبق لها مثيل، هذا الوضع الذي عمقته أكثر أزمة 1929. إن الخيبات الناتجة عن أثار التي خلفتها الحرب العالمية الأولى في أوروبا، إقامة الشيوعية، واختلالات التنظيم " الانوميا" الخطيرين للمجتمع الأمريكي ساهمت كلها في انهيار المصداقية الفلسفية و العلمية للتطورية التي نادى بها علماء الاجتماع الرواد، بحيث لم تعد تظهر الممارسات الإنسانية على أنها ممارسات عقلانية مثلما كان الاعتقاد سائدا، و أن التقدم الأخلاقي للمجتمع لم يعد يظهر على انه تقدم يعود بالضرورة إلى تقدم المعرفة. إن البراغماتية الأمريكية (**بيرس**Pierce، **ديوي**Dewey ، **وجيمس**James) كان يلح على الباحثين في علم الاجتماع أن يتخلوا عن التقليد التخميني الذي أقامه الرواد أصحاب الأنساق النظرية لفائدة صياغة معارف "وضعية" بالفعل، منبعثة تماما من إيديولوجيات السياسية و الاجتماعية و القائمة على البحث الامبريقي الاستقرائي و التي

تسمح بالقيام بتطبيقات اجتماعية مباشرة. فالاعتقاد في التقدم يبقى أساسيا في علم الاجتماع الأمريكي للمرحلة الثانية، لكن هذا التقدم لم يعد يمر عن طريق الإصلاح الأخلاقي، بل عن طريق الفعل الاجتماعي». فمنذ اللحظة الأولى لتوظيف علم الاجتماع في الولايات المتحدة الأمريكية رسم خط ممارسته و نشاطه في إطار توجه امبريقي عملي، يسعى إلى إيجاد حلول عملية لجملة المشاكل و الاختلالات التي كانت سائدة في الواقع الاقتصادي و الاجتماعي للولايات المتحدة الأمريكية. فالصبغة التي سيأخذها علم الاجتماع المعاصر الذي نشأ و جاء أساسا في الولايات المتحدة الأمريكية هي صبغة عملية امبريقية يجعل من البحث الميداني دعامته الرئيسية. و من هنا سيبدأ التخصص في الدراسات واختيار مواضيع معينة يجرى عليها البحث و هذا عكس ما كان عليه علم الاجتماع الكلاسيكي مع الرواد الذين لم يتفقوا على موضوع محدد و وحيد، مثلما لم تكن التوجهات الميدانية الامبريقية في أجندة اهتماماتهم السوسيولوجية نظرية بالأساس، فالجهد كان منصب على التنظير للظواهر الاجتماعية، لذلك وجدناهم يبحثون عن المفاهيم التي يتناولون بها الظواهر الاجتماعية أكثر من تقديمهم لملاحظات أو مقابلات ميدانية بالدرجة الأولى.

و سنحاول فيما يأتي أن نتعرض إلى جملة من النظريات السوسيويوجية المعاصرة، والتي أخذت مكانها عند بداية القرن العشرين. سيما انطلاقا من عقدة الثاني و استمرت يمكننا القول إلى مرحلة نهاية الستينات.

فما هي هذه النظريات، و ما هي الأسس التي قامت عليها، و من هم روادها ؟

المحـــاضرة السابعة

النظرية الوظيفية في علم الاجتماع

أول نظرية سوسيولوجية معاصرة هي النظرية الوظيفية، و هي نظرية كان لها أثرا بالغا في حركية علم الاجتماع ليس فقط في الولايات المتحدة الأمريكية، بل في أنحاء كثيرة من العالم، سيما العالم العربي – المشرق العربي – يستند إلى هذه النظرية التي يحاول من

خلالها أن يفهم بها واقعه الاجتماعي على ماذا تقوم هذه النظرية و ماهي مقوماتها و مبادئها العامة ؟

على العموم « نشير لهذه التسمية التوليدية الى قائمة من المدارس المنبثقة عن الأنثربولوجيا الانجلوساكسوتية في بداية العشرينيات من القرن الماضي التي طبعت بعمق السوسيولوجيا الأمريكية حتى السبعينيات نعيد هنا التميز الكلاسيكي للاتجاهات الوظيفية الثلاث:

- الوظيفة المطلقة عند **مالينفسكي Malinowski** و **راد كليف براون** Radcliff Brown.. (تسمى أيضا وظيفية راديكالية أو وظيفة خالصة).
- الوظيفة النسبية عند **ميرتون** Merton (أو الوظيفة المعتدلة).
- الوظيفية البنائية عند **تالكوت بارسونز** »Talcott Parsons

فالوظيفة هي مدينة في وجودها إلى الانثروبولوجيا الثقافية لكن مصطلح الوظيفة كان موجودا قبل بروز الوظيفة كنظرية سوسيولوجية في علم الاجتماع، بل وجدناه حاضرا عند اميل دوركايم في نظامه السوسيولوجي: « إذا كان مالينفسكي قد أسس التيار الوظيفي، فإن مفهوم الوظيفة كان حاضرا في السوسيولوجيا منذ نشأتها حيث رأينا كيف استوحى أوغست كونت و هيربرت سبنسر و اميل دوركايم تصورهم للمجتمع من الأدوات الاصطلاحية لعلوم الطبيعة، و خاصة البيولوجيا، فالمجتمع إذا بالنسبة إليهم بمثابة كل (الكائن الحي) لا تفهم أجزاؤه إلا في علاقاتها مع هذه الكلية، و قد استعمل سبنسر في نهاية القرن 19 مفاهيم الكائن العضوي، و الوظيفة و البنية، فبحث في سبيل المثال في المجتمع على وظائف متشابهة، للوظائف الاجتماعية الكبرى: إنتاج واستهلاك و اتصال ...يرفض دوركايم هذه الغائبة المبسطة عند سبنسر في تحليل الوظيفة التي تقوم بها كل ظاهرة اجتماعية في علاقتها مع حاجات الكائن الحي الاجتماعي ... إن تصور الوظيفية مرتبطة بالحاجة جعل مالينفسكي يقول إلى دوركايم هو "أب الوظيفة" ولكن يعود له الفضل كما كتب في " خلق كله وظيفة ليؤسس نظرية و منهما و فكر وجد من قبل" » .

فدوركايم هو الذي أعطى محتوى سوسيولوجي للوظيفة، و إن لم يكن دوركايم قد جعل من مصطلح الوظيفة واحد من أهم المفاهيم التي بلورها الى محتوى سوسيولوجي يعول عليه في نظريته السوسيولوجية ، و يعود إلى مالينفسكي العقل في التشهير بمصطلح الوظيفة في علم الاجتماع، ليصبح دعامة اتجاه نظري في علم الاجتماع هو الوظيفية.

على ماذا تقوم وظيفة مالينفسكي ؟

تسمى أيضا وظيفية مالينفسكي بالوظيفية المطلقة و « يرى مالينفسكي انه من الضروري أن تعتمد النظرية الانتروبولوجية على الظواهر البيولوجية، " فالكائن البشري باعتباره حيوانا، و لكنه في الوقت نفسه لا يعيش بدوافع فيزيولوجية فقط ، بل بدوافع فيزيولوجية معتدلة، و معدلة بظروف الثقافة... " إن الثقافة لمن يأخذ بالنظرية الوظيفية، تعتبي تلك المجموعة الكاملة من الأدوات و امتيازات مجموعاتها و الأفكار و الأعراف البشرية و التي تشكل جهازا واسعا يمنح الإنسان إمكانية مواجهة المشاكل الملموسة الخاصة التي تعترضه في تلاؤمه مع محيطه لتلبية حاجاته على هذا الأساس تجتهد النظرية الوظيفية في تشخيص وظيفة كل مؤسسة أو تنظيم أو ممارسة اجتماعية لإشباع حاجة بيولوجية (أو حاجة مشتقة متولدة عن الحاجة الثقافية لحاجات بيولوجية). يتناسب مع كل حاجة... عنصر وظيفته إشباع هذه الحاجة... و بالطبع تختلف هذه العناصر من ثقافة لأخرى، و لكن، و هذا أمر أساسي، لكل عنصر معتبر بهذا الشكل وظيفة على الباحث الكشف عنها... بشكل مصطلح الوظيفة لي نظرية مالينفسكي كما عرضها مرات عديدة قائلا: "تدل الوظيفة دائما على إشباع حاجة... و في موقع آخر يرد قائلا: " ينطلق التحليل الوظيفي للثقافة من مبدأ قومه انه في كل نماذج الثقافة تؤدي كل عادة، و كل تبني مادي، و كل معتقد وظيفية حيوية ما » .

فالوظيفية عند مالينفسكي هي عبارة عن إشباع حاجة ما من خلال أداء وظيفة ما . و تلبية الحاجة هو أمر ضروري لضمان البقاء. فالوظيفة التي يتم القيام بها ضرورية للبقاء. و هذه الوظيفية يقوم بها عنصر معين.

فيمكن أن نقول مع مالينفسكي أن المجتمع مكون من مجموعة عناصر يقوم كل واحد منها بوظيفة ما لضمان بناء هذا المجتمع. فالمجتمع من منظور الوظيفية المطلقة هو بمثابة كائن عضوي يقوم بوظائف معينة لكي يستمر في البقاء، ويمكنا أن نلخص محتوى الوظيفية المطلقة بالقول « إن أعمال مالينفسكي ... التي اتبعت بأعمال راد كليف براون... تمثل القراءات الأولى للوظيفية. و بصورة مبسطة، فان أعمال هؤلاء الانترولوجيين تقوم على تصور للمجتمع ككل يتم تحليله كنظام اجتماعي لا تعتبر فيه التوترات الاجتماعية إلا تحضيرا لنظام مستقبلي. فالإحداث الثقافية، التي يجب أن ندمج فيها المؤسسات، ليست حسب مالينفسكي (1884 – 1942) إلا " إجابات" لـ "حاجيات" المجتمع، و التي يكون فيها أكثر ظهورا. و التي يعمل على توحيدها. يتعلق بـ " البقاء ". و عليه، فان المؤسسات تكون لها غاية اجتماعية تلائم و تناسب وظيفة " تلبية " الحاجيات الاجتماعية » .

المحاضرة الثامنة

الوظيفية النسبية لروبرت كينغ ميرتون

جاءت محاولة ميرتون لتلطيف (إن صحت العبارة) الوظيفية المطلقة عند مالينفسكي و راد كليف براون اللذان لم يريا في المجتمع إلا مجموعة من الوظائف التي تقوم بها مؤسساته من اجل البقاء و الاستمرار. أما ميرتون و إن كان حافظ على مصطلح الوظيفة التي تميز المجتمع، إلا أنه أعطى طابعا نسبيا للوظيفة في المجتمع و نزع عنها صفة الشمولية التي أقر بها مالينفسكي و راد كليف براون. و سعى إلى تبيان بعض حدود النظرية الوظيفية بالاعتماد على بحوث امبريقية، تبين أن المجتمع لا يدرك فقط من منظور وظيفي بحت، و إن هذه الوظائف لا تختصر في بعد واحد و هو البعد الحيوي البيولوجي كما رأى ذلك مالينفسكي بل حدد خمس دلالات لعبارة وظيفة و هي:

« - الوظائف الاجتماعية و الرمزية المرتبطة مثلا بعهدة انتخابية. يؤدي رئيس البلدية مثل هذه الوظائف في حفل تخليدي.

- الوظيفة التي تشير إلى المهنة و المرتبة التي يحتلها فرد ما في تنظيم ما

- الوظيفة التي تشير إلى مهام إدارية أو مكانة سياسية.

- الوظيفة (الدالة) الرياضية التي تشير إلى العلاقة بين متغيرات... بحيث يؤدي كل متغير في إحداها إلى تغير متناسب لأخرى، و يستعمل علماء الاجتماع هذا المعنى ليربطون نسب الرسوب المدرسي بالظروف الاجتماعية و المهنية للوالدين.

- الوظيفة بالمعنى البيولوجي للكلمة... و الذي " تأسس عليه التحايل الوظيفي كم استعمل في السوسيولوجية و الاثنولوجيا ».

أما الركائز الابستمولوجية التي تقوم عليها وظيفية ميرتون و تتمثل في نقد ثلاث بديهيات أساسية و هي بمثابة مسلمات صاغها ميرتون و التي عادة ما يستند إليها أصحاب الاتجاه الوظيفي. وهي: « مسلمة الوحدة الوظيفية القائلة بوظيفة العناصر الثقافية و النشاطات الموحدة للنسق الاجتماعي برمته، و لكن ميرتون يلاحظ أن الوحدة الوظيفية للمجتمع البشري يكذبها الواقع بصفة دائمة. فالمستوى العالي من الاندماج الاجتماعي الذي يصفه علماء الاثنولوجيا الوظيفية مرده إلى جهل المدرسة للكتابة، و في هذا الصدد يقول: " قد تكون ممارسات أو أحاسيس اجتماعية وظيفية (لها وظيفة) بالنسبة لجماعات، و قد تكون غير ذلك بالنسبة لجماعات أخرى في المجتمع نفسه ».

فيمكن أن تكون لظواهر اجتماعية ما وظائف معينة لدى مجموعة اجتماعية ما، لكنها لا تعتبر كذلك بالنسبة إلى مجموعة أخرى. فعندما تعتبر ظاهرة ما على أنها تؤدي إلى الاندماج الاجتماعي لدى جماعة ما، في حين نعتبرها مجموعة أخرى بأنها محل نزاع و صراع، مثلما يحدث ذلك في المجتمعات الغربية في علاقاتها بالمعتقد الديني. فتارة يعتمد عليه في البحث عن الاندماج، و تارة أخرى يصبح محل نزاع و صراع. فالمعتقد الديني لا يؤدي نفس الوظيفة في هذه الحالة.

أما المسلمة الثانية التي يقوم ميرتون بنقدها فهي « مسلمة الوظيفية العامة تقول بأن كل العناصر الاجتماعية و الثقافية تؤدي وظائف سوسيولوجية... و لكن من جهة نظر ميرتون لم تأت هذه المسلمة اللهم إلا ببعض النتائج الهزلية مثل وظيفة الارثوذكسية التي ابتدئها كلو كهون لتفسير بقاء أزرار الأيدي في البدلة الرجالية في أوروبا ».

في حين وجدنا النقد الثالث يتوجه إلى النقد « مسلمة الضرورة التي تعتبر كل عنصر على انه أمر لابد منه في سير الكلية العضوية. لكن يحيد هذا القول بالملاحظ عن الحالة، حيث تستطيع عناصر متبادلة أن تؤدي لنفس الوظائف الضرورية لبقاء الجماعات، ومن ذلك القاعدة التالية: " مثلما يكون لعنصر واحد وظائف عدة، كذلك يمكن لعناصر متبادلة أن تؤدي وظيفة واحدة. و هو ما يستدعي مصطلح المعادلات الوظيفية أو البدائل الوظيفية... الذي يثري التحليل الوظيفي بإبعاد الأحادية و الضرورة الوظيفية لكل عنصر ».

مساهمة ميرتون في النظرية السوسيولوجية الوظيفية

كانت مساهمة ميرتون أساسية في دفع النظرية الوظيفية نحو التوجه السوسيولوجي، و كانت نقطة انطلاقه من نقد وظيفية مالينفسكي: « تستند وظيفية **مالينفسكي** إلى عدد من المسلمات وبتفسيره لهذه البديهيات و بإخضاعها للنقد المفصل، يسير ميرتون بين الوظيفية و التحليل الوظيفي: و أولى هذه المسلمات هو فصل عام غير مؤسس و الذي قد يتحول إلى معتقد أو إجراء، أما المساهمة التي اتى بها ميرتون فتتمثل في وضعه لبرنامج كامل يحاول أن يبلوره عمليا...

أ) يعوض مصطلح الحاجة الذي استعمله مالينفسكي بـ "المطلب الوظيفي"، للاشارة بصفة محايدة واضحة إلى مسالة ظروف بقاء النظام.

ب) يشير إلى أن نفس "المطلب الوظيفي"، يمكن أن تقوم به مؤسسات آو أحداث ثقافية مختلفة، حيث تلعب دور " المكافئ أو النائب الوظيفي".

ج) يحاول أن يعطي طابعا إشكاليا لمفهوم الوظيفة من خلال القيام بتميز مزدوج.

د) إذا ما تم التعرف على وظيفة انطلاقا من العواقب الناتجة من إقامة مؤسسة آو فعل ما، فإن هذه العواقب ليست بالضرورة و بكيفية أحادية ايجابية... مقارنة بنسق فرعي ما و سلبية (اختلالات وظيفية)، بالنسبة إلى بنية أخرى...

هـ) يمكن لعاقبة ما أن تكون مرغوب فيها... و ترجعنا مبررات و أهداف واعية، كما يمكن أن تكون كذلك غير مرغوب فيها، نتحدث في الحالة الأولى عن " وظيفة ظاهرة " و في الحالة الثانية عن " وظيفة كامنة " ». لقد كانت مساهمة ميرتون التي قامت على نقد

مسلمات مالينفسكي، و عوضها بمفاهيم جديدة و هي النائب الوظيفي، الاختلال الوظيفي، الوظيفة الظاهرة و الوظيفة الكامنة، حيث سعى إلى إعطاء هذه المفاهيم بعدا واقعيا بعيدا عن الطابع الدوغمائي الذي رآه في وظيفة مالينفسكي و اخذ أمثلة عديدة من واقع المجتمع الأمريكي و حاول أن يسقط عليها مفاهيمه تلك. فمثلا حاول تفسير ظاهرة الاستهلاك من خلال مفهوم الوظائف الظاهرة، و تفسير سير الآلة السياسية الأمريكية انطلاقا من مفهوم الوظيفية الكامنة. و يمكننا ان نقول « ان مساهمة ميرتون كانت تهدف إلى توضيح و تفسير اسلوب تحليل الذي بدى و كأنه مهيمنا في علم الاجتماع الأمريكي بعد الحرب العالمية الثانية سيما من خلال قدرته على تحليل انساق فرعية اجتماعية مختلفة. يمكن لهذه الأنساق الفرعية أن تفسر انطلاقا من وحدتها المادية، حسب التقليد المونوغرافي – دراسة مدينة، مؤسسة تعليمية او تنظيم ما– أو من خلال عينة من المواقف و الممارسات التي تسمح ببقاء بنية ادوار لمجموعة من الأشخاص – أطباء، أساتذة، سياسيين– ، فالتحليل انطلاقا من الوظيفة يتم من وجهة نظر تنطلق من العنصر. لكن يمكن لاتجاه معاكس أن يضع في المقام الأول النسبة و تحليل قوانينها الداخلية للضبط... و هذا ما من شانه أن يؤدي بالتحليل الوظيفي بهذا الانتقال من العنصر إلى النسبة، إلى التوصل إلى التحليل النسقي، هذا التحليل النسقي الذي هو عبارة عن الكيفية التي أعاد بها تالكوت بارسونز صياغة الوظيفية ». لذلك نتحدث عن البنائية الوظيفية أو البنيوية الوظيفية عند تالكوت بارسونز، وهو الاتجاه الثالث في النظرية الوظيفية.

المحاضرة التاسعة

البنائية الوظيفية أو البنيوية الوظيفية عند تالكوت بارسونز

لقد كان لتالكوت بارسونز (1902 - 1979) تأثيرا كبيرا في علم الاجتماع الأمريكي. و كان إسهامه كبيرا في النظرية السوسيولوجية المعاصرة. فمنذ صدور مؤلفه بعنوان بنية الفعل الاجتماعي عام 1937 فيمكن القول انه تربع على **فيبر** عرش علم الاجتماع في أمريكا. مع الإشارة إلى أن طرح **بارسونز** كان في مجمله نظريا، حاول من خلاله إحياء روح الرواد الأوائل الذين كانت سوسيولوجيتهم ذات طرح نظري فسعى جاهدا إلى إقامة نسق نظري شامل، و إن كان طرحه هذا مستوحى من أفكار فيبر، حيث قام بترجمة مؤلف فيبر الأخلاق البروتيستانية و الروح الرأسمالية منذ 1930.

كان بارسونز يهدف إلى بناء نظام مفاهيمي منتظم حاول من خلاله أن يفهم الفعل الاجتماعي و مميزاته و من ضمن هذا الإطار المفاهيمي الذي رافع له **تالكوت بارسونز** مفهوم البنية التي يحتل مكانة محورية في سوسيولوجية بارسونز.ثم نجده يرفق بهذا المفهوم الأربع ضرورات وظيفية المميزة لكل بنية حسبه: « أن الأعمال التي قدمها تالكوت بارسونز الذي كان أستاذ بجامعة هارفارد...هي أعمال معتبرة و كان لها وزنا كبيرا في الولايات المتحدة إلى غاية سبعينيات القرن الماضي. و يتعلق الأمر في هذه الأعمال قبل كل شيء ببناء إطار مفاهيمي منتظم قادرا على تفسير الفعل الإنساني ...سعى تالكوت بارسونز إلى وضع أسلوب اهتمام نظري يتلقى م النوايا الشمولية للرواد المؤسسين، و حاول بذلك أن يعيد من جديد النواة المشتركة للانشغالات . فالإطار الذي قام ببنائه يضع في المقام الأول مفهوم البنية و يحدد أربع ضرورات وظيفية مشتركة لكل بنية مهما كانت: تكيف مع المحيط، انجاز الأهداف، اندماج، انسجام و تقليص التوترات.ثم يقوم بعد ذلك بتحليل، لكل مستوى من بنية ما، الأنساق الفرعية التي تستجيب للضرورات الأربع المشار إليها أعلاه: فبالنسبة إلى الفعل الاجتماعي الذي يتم اعتباره كنسق، فإن النسق الاجتماعي الفرعي يقوم بوظيفة الاندماج .أما بالنسبة إلى هذا النسق الفرعي ذاته فهو مقسم إلى أربعة ، فالعشيرة المجتمعية هي من يقوم بأداء هذه الوظيفة ».

و على العموم، فإن نظرية البنيوية الوظيفية لا تتميز بالوضوح و المرونة المميزة لوظيفية **ميرتون**. و ما يزيد من عدم وضوحها التام هو بقائها في حدود النظرية البحتة: « لقد رفض تالكوت بارسونز مثل ميرتون إمبريقية الأبحاث السوسيولوجية الأمريكية في النصف الأول من القرن العشرين في إرادة يحدوها بناء نظرية سوسيولوجية شديدة الارتباط بعلوم الإنسان الأخرى...دون هيمنة أي منها على الأخريات. في صياغة معقدة في حد ذاتها، تبقى نظرية بارسونز صعبة التناول و مثيرة دائما للجدل، نظرية في تطور مستمر يزيغ فيها القارئ، إذا تأخذ اتجاهات غير منتظرة».

و على العموم يمكن لنا أن نلخص البنيوية الوظيفية عند بارسونز إلى ما يأتي: « الوظائف الأولية و الأنساق الفرعية للفعل ،...النسق الاجتماعي المجتمع...التغير التطوري ». و على العموم يمكن أن نرى في نظرية بارسونز بأنها محاولة ترفض الإمبريقية التي تستند إلى الملاحظة و الإحصائيات من دون تأطير من النظرية، كما يحاول تحليل الأنساق الاجتماعية من خلال إدراكها بأنها انساق أفعال.

هذه بصفة مختصرة و عمومية بعض الجوانب التي حملتها النظرية السوسيولوجية الوظيفية التي سادت في الولايات المتحدة الأمريكية لحوالي أربعين سنة، من نهاية العشرينيات إلى نهاية الستينيات من القرن الماضي، و هي نظرية عرفت مؤيدين و منتقدين لها. و لطالما وصفت بأنها نظرية تحمل لمقومات إيديولوجية المجتمع الليبرالي الرأسمالي، و بأنها نظرية ترفض واقع الصراع، التي ترجعه إلى مجرد اختلال وظيفي لا أكثر، و بأنها نظرية جاءت كرد فعل على الماركسية التي تقر بالصراع الطبقي و تجعله أهم ميزة في المجتمع الرأسمالي. و أن المجتمع الرأسمالي هذا يقوم على الاستغلال و الهيمنة و ليس على الاندماج مثلما كانت ترى في ذلك النظرية الوظيفية.

إلى جانب النظرية الوظيفية، عرفت الولايات المتحدة الأمريكية بروز نظريات سوسيولوجية، أو بالأحرى اتجاهات سوسيولوجية. لأن ما عرفته الولايات المتحدة منذ إنشاء مدرسة شيكاغو عام 1892، إذ ما يميز هذه الاتجاهات التي تدور في محور مدرسة شيكاغو هو طابع الدراسات الامبريقية الميدانية التي لا تستند إلى انساق نظرية شمولية

مثلما لا تسعى إلى تطوير نظريات سوسيولوجية، بل تسعى إلى مراكمة معارف من دراسات امبريقية اكتسب شهرة كبيرة و انبثقت عنها تسميات ميزت تاريخ علم الاجتماع في مراحل محددة.

و نحاول فيما يأتي أن نتعرض إلى هذه الاتجاهات السوسيولوجية المعاصرة بصفة عامة . لكن قبل أن نتعرض إلى هذه الاتجاهات، نرى انه من الضرورة بمكان أن نعرج على مدرسة شيكاغو، التي أطرت كل هذه الاتجاهات من بعيد أو من قريب، ففضل هذه المدرسة في انطلاق حركية البحث السوسيولوجي الامبريقي، و كل محاولة للتزمين لعلم الاجتماع أو إظهار اتجاهاته أو نظرياته. لا يتوقف عند إسهام هذه المدرسة فما هو إسهامها إذا، و ما هي ملامحها و خصائصها في تطوير علم الاجتماع.

المحـــاضرة العاشرة

مساهمة مدرسة شيكاغو في دفع " النظرية " السوسيولوجية

هناك علاقة وطيدة بين بروز علم الاجتماع في الولايات المتحدة الأمريكية و مدرسة شيكاغو، حيث تم إنشاء هذه المدرسة عام 1892، حيث كانت هذه المدرسة مهيمنة على البحث السوسيولوجي الميداني سيما في الوسط الحضري، و هذا إلى غاية 1930، و اعتبرت شيكاغو بمثابة مخبر اجتماعي، سمح بانطلاق تخصص علم الاجتماع الحضري، و علم الاجتماع الانحراف.بحيث الافتراض الذي كان سائدا لدى الباحثين في مدرسة شيكاغو هو وجود علاقة بين التطور الحضري و تنامي المشاكل المرافقة لهذا التطور الحضري، هذه المشاكل التي يترتب عنها ما سماه هؤلاء الباحثين بغياب التنظيم الاجتماعي (désorganisation sociale):« هناك علاقة وطيدة بين مدرسة شيكاغو و نشأة علم الاجتماع الأمريكي و الدراسات الأولى عن المدينة.

لقد تم إنشاء قسم لعلم الاجتماع بشيكاغو سنة 1892 من طرف **ألبيون سمـــول** Albion Small(1854-1926)، الذي أشرف على هذا القسم إلى غاية 1924، و يعتبر **ألبيون سمول** أول من أعطى إطارا تنظيميا لعلم الاجتماع، و هو ذاته الذي انشأ المجلة

الأمريكية لعلم الاجتماع. إلى غاية 1930 كانت شيكاغو اكبر مركز في التعليم و البحث في علم الاجتماع في الولايات المتحدة...، و انطلاقا من عشرينيات القرن الماضي، أصبحت جامعة شيكاغو مركزا لدفع البحوث التي كانت تتم حول مدينة شيكاغو و إحيائها.لقد قام كل من **ويليام إسحاق توما** و **روبرت بارك** و **لويس فيرت.** خاصة، ببحوث ميدانية حول نمط حياة سكان شيكاغو في تلك الفترة، مدينة شيكاغو كانت بمثابة فسيفساء حضرية تتكون من عدة مجموعات سكانية مهاجرة:بولونيين، ايرلنديين،ايطاليين، يهود و سود قدموا من جنوب الولايات المتحدة.

و في هذا " المخبر الاجتماعي"، عبارة **لروبرت بارك،** يباشر الباحثين في علم الاجتماع مجموعة من البحوث المونوغرافية التي سيكون لها شأن كبير في تاريخ علم الاجتماع: **وليام إسحاق توما William Isaac Thomas** ، **فلوريان زنانيشي،** Florian Znanieci "الفلاح البولوني في أوروبا و في أمريكا، 1919"، **نيلس أندرسون Niels Anderson** ، "الهوبو.سوسيولوجية البدون مأوى،1923"، **هارفي وارن زوربوغ Harvey warren Zorbogh** ، "الساحل الذهبي و الكوخ،1928"، **فريدريك مبلتون تراشر Fredric Mibelton Trasher** ، "العصابة 1929"، **كليفورد شاو Shaw Clifford** ، "قصة حياة جانح،1930"، **لويس فيرت Louis Wirth**، "الغينو،1928"، الذي خصصه للحي اليهودي بشيكاغو ، **سان كلاردراك، هوراس دوسكوكايتون ، بلاك ميتروبوليس** "دراسة حياة السود بشمال المدينة،1945"، و هو عبارة عن دراسة مونوغرافية لأحد أحياء السود بمدينة شيكاغو».

إن الشيء المميز لمدرسة شيكاغو منذ البداية هو توجهها نحو البحوث الميدانية، حيث احتلت ضمنها الدراسات المونوغرافية القائمة أساسا على تقنية الملاحظة حيزا كبيرا، و سعت هذه البحوث أن تبين أن التوسع الحضري و النمو الصناعي يرافقهما نوع من الاختلال الاجتماعي « فبالنسبة إلى الباحثين في علم الاجتماع بمدرسة شيكاغو، فمن الواضح أن التمركز الحضري، و الاختلال الاجتماعي " لا يمكن لهما إلا أن يؤديا إلى الانحراف و الجريمة. و هذا هو واحد من المواضيع الرئيسية " للايكولوجيا الحضرية ".

و نعني بـ " الايكولوجيا " أن الوسط الاجتماعي يكون ملائما أم لا لهذا النوع من التصرفات و لشخصية حضرية نمطية ».

لقد ساهمت مدرسة شيكاغو في إرساء تقليد ممارسة سوسيولوجية جعلت من الدراسات الامبريقية الميدانية القائمة أساسا على الملاحظات و المونوغرافيات دعامتها الأساسية، و لم تكترث لإقامة انساق نظرية و بناء مفاهيم مجردة. فالتراكم المعرفي الذي رافعت من أجله تمثل من خلال النزول أو التوجه نحو الميدان للحصول على المعلومات و البيانات و إقامة أنظمة تفسيرية لا تكون بالضرورة مستمدة و مستوحاة من اطر نظرية مفاهيمية تم تحديدها من قبل.

إن الشيء المميز و الذي ساعد على إنشاء مدرسة شيكاغو و تموقعها و أخذها لمكانة متميزة في النظام الجامعي الأكاديمي الأمريكي، هو السياق التاريخي الذي ميز الولايات المتحدة الأمريكية في تلك المرحلة حيث كانت الولايات المتحدة الأمريكية بمثابة مجتمع جديد حاملا لخصوصيات عديدة من الناحية الاجتماعية مما قد يجعله حاملا لدلالات سوسيولوجية متميزة.

في هذا السياق كانت شيكاغو بمثابة عينة يمكن أن نعتبرها ممثلة لكثير من ملامح المجتمع الأمريكي الناشئ:« في 1892، بشيكاغو قامت جامعة خاصة بإنشاء قسم لعلم الاجتماع سيكون له شأن كبير في تاريخ علم الاجتماع الحضري، وبامتداد لذلك، و كنتيجة لذلك علم اجتماع الانحراف، لقد كان السياق الاجتماعي مساعدا للغاية. حيث انتقلت شيكاغو من حالة مقاطعة تضم 4500 ساكن في 1840 إلى وضع عاصمة اقتصادية جهوية و من مدينة مترامية الأطراف تضم 17 مليون نسمة في عام 1900.

إن هذا الانفجار الحقيقي من النواحي الاقتصادية و الاجتماعية و الإنسانية قام أساسا على هجرة السود القادمين من جنوب الولايات المتحدة و على هجرة هامة من أوروبا (ألمان، ايرلنديين، ايطاليين، بولونيين، روس) و تم هذا كله في ظل اختلال اقتصادي، و فساد سياسي، و كمحطة لكل ذلك حالة من الاختلال الاجتماعي الذي لم يسبق له مثيل ».

لقد سعت الدراسات و البحوث منذ عشرينيات القرن الماضي ضمن مدرسة شيكاغو إلى الاهتمام أكثر بظاهرة اختلال التنظيم الاجتماعي، حيث تمحورت جل البحوث التي تمت من طرف الباحثين المنضوين تحت مضلة مدرسة شيكاغو ضمن هذا الاتجاه. فكان مصطلح اختلال التنظيم الاجتماعي (désorganisation sociale) إطارا موجها لجل تلك البحوث و هذا المصطلح كان من ابتكار وليام إسحاق توما و فلوريان رنانيتشي في مؤلفهما: الفلاح البولوني في أمريكا. الذي صدر عام 1916، و هو المؤلف الذي يؤسس لانطلاق العمل الامبريقي الميداني: «...إن مؤلف الفلاح البولوني في أوروبا و أمريكا سيعتبر نموذجا للعمل الامبريقي. حيث قام هذا المؤلف بإدخال مصطلح " اختلال التنظيم الاجتماعي" الذي سيميز كل أعمال هذا الجيل الأول من الباحثين السوسيولوجيين في مدينة شيكاغو. و يتعلق الأمر بتبيان أن ثمة تخل عن المعايير و الممارسات و التمثلات الجماعية لدى الفلاحين عندما يصبحون مهاجرين في شيكاغو...إن كل الباحثين السوسيولوجيين في مرحلة نهاية القرن التاسع و بداية القرن العشرين يتساءلون في العمق و بنوع من القلق حول التغير التاريخي الذي يحدث تحت أعينهم: نهاية المجتمعات العشائرية الفلاحية و تعميم أساليب حياة جديدة خاصة بالمدن الكبرى ».

فالسياق التاريخي المتميز بحالة تغير اجتماعي كبير الذي عرفته الولايات المتحدة الأمريكية في بداية القرن العشرين يكون له تأثيرا كبيرا في اتجاه البحث السوسيولوجي في مدرسة شيكاغو. و إن لم يكن هناك تصريح علني، مثلما كان عليه الحال مع رواد علم الاجتماع الكلاسيكي الذين أدرجوا كل محاولاتهم السوسيولوجية ضمن ما عرف بالمسألة الاجتماعية كلحظة توتر هامة في الممارسة السوسيولوجية، عندما سعوا إلى إيجاد حلول علمية للمشاكل الاجتماعية التي كانت تعرفها المجتمعات التي عاشوا ضمنها، فإن الانشغال العلمي كان كذلك مؤطرا للعمل السوسيولوجي للمنتسبين إلى مدرسة شيكاغو.

إلا أن مقترحاتهم العلمية كانت تخص بالدرجة الأولى مدينة شيكاغو، في ظل سعي إصلاحي في ظل مشروع اجتماعي سياسي محدد:« أن علم الاجتماع الأمريكي في بدايته كان مرتبطا بمشروع سياسي " بالإصلاح الاجتماعي" و الذي يترجم إرادة زيادة رفاهية

الجميع من خلال معرفة أفضل للوقائع الاجتماعية و ديمقراطية أكثر. حيث تترجم المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع التي أنشئت في 1895 و كانت تابعة في الأول قسم علم الاجتماع، هذه النظرة الإصلاحية :" العمل على مساعدة كل الرجال الأذكياء بان تكون لهم نظرة واسعة قدر الإمكان فيما يتعلق بواجباتهم و حقوقهم كمواطنين. و أن يترجم علم الاجتماع في خطاب الحياة اليومية...بصفة تظهر من خلالها هذه الممارسة السوسيولوجية ...كوسيلة لزيادة الفهم الحالي لواقعنا الاجتماعي، بكيفية تسمح بتحسين تنظيم ترقية الرفاهية العامة و تكون بمثابة دعامة لكل محاولة معروفة لضمان رفاهية الإنسان"...فبالنسبة إلى مؤسسي علم الاجتماع الأمريكان، فإن هذا العلم يجب أن يكون مفيدا مما يمنح له الضمانة بتطوره، لقد اعتبر **ألبيون سمول** و الملتفين حوله أو المحيطين به. علم الاجتماع كواحد من الأدوات من اجل محاربة عواقب سياسة " دعه يعمل"، و بصفة أقل رسمية، واحدا من الوسائل لاحتواء انتشار الاشتراكية و الراديكالية...و هذا التصور...يجد له مبررا في السياق الأمريكي الذي بقي متأثرا بذاكرة حرب الانفصال التي عرفتها أمريكا (1861-1865)، و المشاكل العرقية المتكررة، كما عرف المجتمع الأمريكي تطورا سريعا جدا في تصنيعه و تحضره.» .

هكذا نرى أن الانشغال العملي الاجتماعي كان حاضرا في اتجاهات عمل مدرسة شيكاغو. و هذا الانشغال العملي الاجتماعي سينعكس أيضا على طريقة و منهجية العمل لدى الباحثين المنتسبين إلى مدرسة شيكاغو:« في 1913، قام **وليام توما** بإستقدام عن طريق الجامعة **روبرت بارك** Park Robert (1864-1944) كمختص في " مسألة السود في أمريكا" و سيقوم هذا الأخير، رفقة **ارنست بورجس**Ernest Burgess (1886-1966)، بوضع أو صياغة منهج بحث في علم الاجتماع، و التي سيتم تعليمها إلى جيل بكامله من الطلبة التي منحت أعمالهم سمعة لمدرسة شيكاغو...و هذه الأعمال كانت موجهة نحو المدينة و نحو مختلف المجموعات الاجتماعية التي تعيش فيها. أنهم يوجهون اهتمامهم نحو السيرورات التي نسميها اليوم بالتمايزات الاجتماعية الفضائية، و نحو العلاقات و " أنواع التفاعلات " (تنافس، نزاع،اتفاق،إدماج) بين المجموعات الاجتماعية . و هم يبينون ان ظواهر مثل الانحراف و الانتحار، و انطلاق، و إقامة نوع

معين من المؤسسات هو خاص ببعض المناطق الحضرية و ليس بهذا النوع من السكان الذين يعرفون بأصولهم الإثنية. كما أنهم يحددون كمفهوم مركزي مفهوم " الضبط الاجتماعي، الذي يحددون من خلاله جملة الميكانيزمات التي تنظم الحياة الاجتماعية بين المجموعات و التي تتهيكل على أساسها التصرفات الفردية داخل هذه المجموعات. " من المحتمل أن تكون القطيعة مع الروابط المحلية و ضعف أشكال القهر و الكبح من طرف المجموعات الأولية تحت تأثير الوسط الحضري هي المسؤولة بصفة واسعة عن تنامي غياب الأخلاق و الجريمة في المدن الكبرى " مثلما أشار إلى ذلك روبرت بارك في مؤلفه المدينة (1925).

فدراسة الحالة (إستعمال كل أنواع المعلومات من المصدر، و مما سيعرف لاحقا بـ " البحث الميداني ") و استعمال خرائط الأحياء هما من جهة أخرى، الأدوات الرئيسية لبرنامج البحث هذا حول المدينة » . فكما نلاحظ فإن المدرسة حاولت أن تقيم مشروع آو برنامج بحث و ليس السعي لبناء طرح نظري شمولي.

فالانشغال النظري لم يكن من ضمن برنامج عملها و بدت السوسيولوجيا في مدرسة شيكاغو كانشغال براغماتي :« هناك سمة بارزة لهذه السوسيولوجيا البراغماتية أساسا و هي أنها تمنح لنفسها الدور الأول في صياغة " تكنولوجيا اجتماعية من شأنها أن تكون قادرة على حل المسائل التي تؤدي إلى وجود هذه الإشكاليات: معالجة الظواهر التي تتعلق بالتهميش، و بالجريمة و بالتمييز الاجتماعي و التي يتم الاهتمام بها في مشاريع البحث المتعلقة بالفضاءات الحضرية و التي انكب عليها الباحثين في شيكاغو».

و على العموم عرفت مدرسة شيكاغو مرحلتين في تاريخها و هما مرحلة النشأة و التي امتدت من 1893 أي عندما تم تأسيسها، و التي امتدت إلى سنة 1940، و تزامنت نهاية هذه المرحلة الأولى مع بروز نظرية تالكوت بارسونز التي هيمنت على التوجهات السوسيولوجية في الولايات المتحدة الأمريكية، و عرفت هذه المرحلة سيما إلى غاية سنة 1920 نوعا من الصعوبات على المستوى المؤسساتي: « من وجهة نظر مؤسساتية، عرفت بدايات قسم علم الاجتماع بشيكاغو انطلاقة صعبة نوا ما، بحيث لم يكن عدد الطلبة

كبيرا- ثلاثة و عشرون تسجيلا في السنة الدراسية خلال لعشر سنوات الأولى- و هذا ما فسره **سمول** أحيانا بالأحكام القيمية المقدمة ضد تخصص علم الاجتماع و بسبب غياب المخارج في علم الاجتماع». و تميزت هذه المرحلة بإنطلاق بحوث ميدانية هامة دخلت في الإرث السوسيولوجي الأمريكي و أدت إلى إبتكار تخصص في علم الاجتماع ألا و هو الايكولوجيا الحضرية « عادة ما يتم إشراك مدرسة شيكاغو بـ" الايكولوجيا الحضرية" أي التحليل الدقيق للترابطات الموجودة بين الأشخاص و أوساطهم. و حتى عبارة ايكولوجيا لم يتم اختيارها بصفة اعتباطية، فنجد **روبرت بارك**، و هو من أكبر ممثلي هذه المدرسة استعمل عبارة " ايكولوجيا بشرية " لإظهار نماذج تطور المدينة...حيث كان يعتبر أن السيرورة الحضرية الحاسمة هي تلك السيرورة المتعلقة بمراقبة الفضاء و أن التوافق لا يكون إلا بمثابة ضبط ثانوي لعلاقات التنافس من اجل تملك و مراقبة الفضاء الناتج عن حراك القاطنين بهذا الفضاء.فـ " الايكولوجيا الحضرية " هي بذلك علم اجتماع الفضاء الحضري. من هذا المنطلق سعى بعض الباحثين في علم الاجتماع المنتسبين إلى هذه المدرسة، إلى تجسيد هذا المفهوم من الناحية العملية: إن علم الاجتماع الحضري يضم من دون شك الأعمال المعروفة أكثر التي تم القيام بها من طرف أعضاء قسم علم الاجتماع لجامعة شيكاغو... و إن أهمية تلك الأعمال و القيمة الاجتماعية التي اكتسبتها نتيجة التحولات التي عرفتها المدينة تفسر في جزء منها أنها من بين الأعمال المعروفة أكثر مع الأعمال المتعلقة بالمهاجرين و بالعلاقات الاجتماعية ». التي إحتلت فيها مظاهر الانحراف و اختلال التنظيم الاجتماعي مكانة هامة مثلما أشرنا إلى ذلك أعلاه.

ثم تأتي المرحلة الثانية في مسيرة مدرسة شيكاغو و هذه المرحلة تتميز بوجود سياق تاريخي للولايات المتحدة الأمريكية كان له أثر في توجيه البحث السوسيولوجي، و حتى لا نقول أننا حضرنا إلى حالة فتور في الاندفاع نحو البحث السوسيولوجي و الدفع به إلى الواقع الميداني و عدم تركه قابعا بين أو داخل أسوار الجامعة، و لكن الظروف العامة و السياق الفكري و الاجتماعي في هذه المرحلة أصبحت أقل ملائمة لحركية البحث السوسيولوجي: « لاحظنا انه خلال الفترة التي سبقت 1935، أن البحوث التي تم القيام بها في جامعة شيكاغو استفادت من تجمع مجموعة من العوامل المؤسساتية المساعدة: إمكانية

التمويل للبحوث، التركيز من طرف الجامعة على البحوث محيط فكري براغماتي و حركة تقدمية للإصلاح، تميز في استقدام الطلبة، الخ .و بعد 1935، أصبح لمحيط اقل ملائمة لتطوير البحوث على التقليد الذي سنه كلا من **توما** و **بارك**.

إن التغيرات الحاصلة على مستوى الظروف الفكرية في الولايات المتحدة تم الإحساس بها بصفة مبكرة في طريقة التفكير التي حاول أن يفرضها و يجعلها سائدة في جامعة شيكاغو رئيسها الجديد، منذ 1929 **روبرت مينار هوتشنز**، الذي كان شابا ذا تكوين قانوني من جامعة **بايل**...لقد كان الباحثون في علم الاجتماع في شيكاغو...» . متحفظين أو معارضين باستمرار اتجاه التغييرات التي قام بها **هوتشنزHutchens** .

يمكن القول أن هذه المرحلة مرحلة إعادة النظر في التقليد السوسيولوجي الذي ميز مدرسة شيكاغو لحظة انطلاقها.صحيح انه كانت هناك محاولات بحث حاولت أن تجدو حذوة مدرسة شيكاغو، لكنها لم ترق إلى نفس الحركية التي عرفتها البحوث الأولى الرائدة في مدرسة شيكاغو« إن التطور الذي عرفته مدرسة شيكاغو، يمكن أن يفسر على انه نهاية، عن طريق الانفجار، لذلك التقليد الذي وجد في مدرسة شيكاغو في قسم علم الاجتماع. و هذا ما يمكن أن يقترحه الوضوح الذي لم يعد بارزا للباحثين السوسيولوجيين المنتسبين إلى الجيل الذي ولد عام 1900، و كذلك القيمة التي أصبحت في تزايـد مطرد و التي تتمتع بها مقاربات أخرى و لا سيما تلك التي ترتكز على التقنيات الإحصائية ... و لكن يمكن أن نكتشف أيضا انه من 1950 و 1970، و على الرغم من حالة التبعثر، فإن إصدار مجموعة من البحوث المنجزة من طرف باحثين سوسيولوجيين تلقوا تكوينهم في الأربعينيات و الخمسينيات ، و الذين تموقعوا ...في تقليد الباحثين السوسيولوجيين المنتمين إلى مدرسة شيكاغو و الذين حصلوا على تكوينهم منها. و هذه البحوث التي كانت مواضيعها اقل شأنا من مونوغرافيات المرحلة السابقة، ستفضي إلى أطروحات و إلى مقالات، و إلى كتب و مؤلفات، و إن كان ذلك يستغرق وقتا،و يتطلب توسعا في الحجم» . و هذه المرحلة، و إن عرفت تواصل البحوث الميدانية، لكنها فترة عرفت صراعات عديدة و متنوعة كان رهانها أكاديميا و إيديولوجيا. مما جعل مدرسة شيكاغو في علم الاجتماع

تفقد الريادة لفائدة جامعة هارفارد سيما مع تالكوت برسونز و جامعة كولومبيا مع **بول لازارسفلد Paul Lazarsfeld.**

و بالموزاة، فإن التقليد العام الذي سنته مدرسة شيكاغو في علم الاجتماع، تمكن من أن يتواصل في اتجاهات سوسيولوجية جديدة : أصبحت بمثابة محطات في تاريخ النظرية في علم الاجتماع المعاصر. و من هذه الاتجاهات نجد كل من التفاعلية الرمزية، و الاثنوميتودولوجيا و الفينومينولوجيا الاجتماعية و هذه الاتجاهات الثلاثة ميزت علم الاجتماع منذ خمسينيات القرن الماضي و إستمرت على الأقل، كإتجاهات بارزة لمدة عقدين. نحاول أن نتطرق إلى كل واحد منها حدة لنبين الأسس التي قامت عليها، و ما هي إسهاماتها في تاريخ النظريات السوسيولوجية المعاصرة.